

دواءٌ نافعٌ لِكُلِّ مريضٍ



د. عبد المحسن بن محمد القاسم
إمامُ وخطيبُ المسجدِ النبويِّ الشريفِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.

أمَّا بعد:

❖ حلاوةُ الآخرة:

الدُّنيا دارُ عملٍ وابتلاء، ولا يَسْلَمُ العبدُ فيها من سَقَم يُكَدِّرُ صفوَ حياتِه، وَمَرَضٍ يُوهِنُ قوَّتَه وحالَه، والبلاءُ نعمة، والمرضُ والشِّدَّةُ بشارة، وربُّنَا سبحانه يَرْحَمُ بِالبِلاءِ ويَبتَلِي بالنِّعمَاء، ومرارةُ الدُّنيا للمؤمنِ هي بعينِها حلاوةُ الآخرة، وكم مِنْ نعمةٍ لو أُعْطِيَها العبدُ كانت داءَه، وكم من محروم من نعمةٍ حرمانُه شفاؤُه ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

والبلاءُ عنوانُ المحبَّة، وطريقُ الجنَّة، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ عِظَمَ الجزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**» رواه الترمذي.

والعافيةُ من أجلِّ نِعَمِ اللَّهِ على عبادِه وأجزَل عطاياه عليهم «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ**» رواه البخاري. وهي من أوَّلِ مَا يُحاسبُ عليه العبدُ في الآخرة، يقول النَّبيُّ ﷺ: «**أَوَّلُ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ العَبْدُ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَم نُصِحَّ لَك جِسْمَك، وَنَرْوِيكَ مِنَ الماءِ البارِدِ؟**» رواه الترمذي.

❖ مَرَضُ الأَنبيَاء:

وإنَّ من أشدِّ التَّمحيصِ سلبُ العافيةِ أو اعتلالُهَا، وصفوةُ البشرِ عليهم الصَّلاة والسَّلام ابتُلوا بالأمراض، دخل ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه على النَّبيِّ ﷺ وهو يُوعَكُ فقال: يا رسولَ الله، إنَّكَ تُوعَكُ وَعْكاً شديداً! قال: «**أَجَلْ، إنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ الرَّجُلَانِ مِنكُمْ**» متفق عليه. وأحاطَ المرضُ بأيُّوبَ عليه السلام سِنينَ عدداً.

❖ مَنَافِعُ المرَض:

في المرَضِ رَفْعٌ للدَّرجَاتِ وَحَطٌّ للأوزار، «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى ـ مَرَضٌ فَمَا سِوَاهُ ـ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ لَهُ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**» متفق عليه.

والمريضُ يُكتَبُ له ما كانَ يَعْمَلُ من النَّوافلِ في حالِ صحَّتِه، وفي المرضِ يَكْثُرُ الدُّعَاءُ وتَشْتَدُّ الضَّراعَة، في مَرَضِ المؤمنِ زِيادَةٌ لإيمانِه وتوكُّلِه على ربِّه وحُسْنِ ظنِّه بمولاه، وهو علاجٌ لأمراضِ النَّفس من الكِبْرِ والعُجْبِ والغَفْلَة والغُرُور، والرَّشِيدُ من يَعتبِرُ بنوائبِ عصرِه ويَستفيدُ الحنكة ببلاءِ دَهْرِه، وكلُّ مصيبةٍ في غيرِ الدِّين عافية.

❖ الله هو الشَّافي:

لا شافيَ إلا اللَّه، ولا رافعَ للبلوى سواه، والرَّاقي والرُّقيةُ والطَّبيبُ والدَّواءُ أسبابٌ ييسِّر الله بها الشِّفاء، فافعل الأسباب وتَدَاوَ بالمباح، ولا تُقبلْ على الطَّبيب بالكلِّيَّة، فالْمُدَاوِي بَشَرٌ لا يملك نفعاً ولا ضرّاً، وتَوَكَّلْ على ربِّكَ وفوِّضْ أمرَك إليه، فهو النَّافع الضَّار، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٠]، والتَجِئْ إليه فليس كلُّ دواءٍ ينفع، قالل النَّبيُّ ﷺ: «**واعْلَمْ أنَّ الأمّةَ لوِ اجْتَمَعَتْ على أن يَنفعُوكَ بشيءٍ، لم ينفعُوكَ إلا بشيءٍ قد كتبَه الله**

لك، ولو اجْتَمَعُوا على أنْ يضرُّوك بشيءٍ، لم يضرّوك إلا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عَلَيْك» رواه الترمذي.

❖ أَنْفَعُ الأَدْوِيَة:

حُسْنُ التَّوكُّلِ على الله والالتجاءُ إليه وحُسْنُ الظَّنِّ به. والرُّقيةُ بالقرآنِ ومَا جاءَ في السُّنَّةِ أنفعُ الأَسبابِ لزوالِ العِلَل، وكذا الدُّعاءُ بقلبٍ خاشِعٍ وذُلٍّ صادقٍ ويقينٍ خالص، والإكثارُ من الصَّدقةِ من خيرِ الأَدوية، وما ابتلَى اللَّهُ عبادَه بشيءٍ إلا أعطَاهم ما يَسْتَعِينُونَ به على ذلك البلاء، وفي دينِنَا أدويةُ طبٍّ يقينيَّةٌ قَطْعِيَّةٌ إِلَهِيَّةٌ صادرةٌ عن الوحيِ ومشكاةِ النَّبوَّة، وهي:

١. تَمْرُ عَجْوَةِ المدينة؛ وِقَايَةٌ من السُّمِّ والسِّحر، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**مَنْ تَصَبَّحَ كُلَّ يَوْمٍ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةً؛ لَمْ يَضُرَّهُ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ**» رواه مسلم.

٢. الماءُ دواءٌ للْحُمَّى، قال النَّبيُّ ﷺ: «**الحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ؛ فَأَبْرِدُوهَا بِالْمَاءِ**» متفق عليه.

٣. الْعَسَلُ لَمْ يُخلَقْ لنَا شيْءٌ في مَعْنَاهُ أفضلَ منه ولا مثلَه ولا قريباً منه، قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ﴾ [النّحل: ٦٨-٦٩].

٤. الحِجَامَةُ خيرُ الأدوية، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**خَيْرُ مَا تَدَاوَيْتُم بِهِ: الحِجَامَةُ**» متفق عليه.

٥. وفي عجوةِ عَالِيةِ المدينةِ شفاء، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إِنَّ فِي عَجْوَةِ العَالِيَةِ شِفَاءٌ ـ أَوْ تِرْيَاقٌ ـ أَوَّلَ البُكْرَةِ**» رواه مسلم.

٦. والحبَّةُ السَّوداءُ شِفَاءٌ من الأسقام كلّها، قال النَّبيُّ ﷺ:

«**عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الحَبَّةِ السَّوْدَاءِ، فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إِلَّا السَّام** ـ أي: الموت ـ» متفق عليه.

٧. ومنَ الأمراضِ مَا شِفَاؤُه بالقُرآنِ والأَدعيَة النَّبويَّة ـ كإبطَالِ السِّحرِ، وإِخرَاجِ الجَانِّ، وإبطَالِ أَثَرِ العَيْنِ ـ.

٨. وعندَ المسلمين مَاءٌ مُبَارَكٌ هو سيِّدُ الْمِيَاه وأشرَفُها وأجلُّها قدراً، يَنْبُعُ من أرضٍ مباركَةٍ في بيتِ الله الحرام، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مَاءُ زَمْزَم طَعَامُ طُعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ**» رواه البيهقي.

وتلكَ الأدويةُ النَّبويَّة الشَّافية إِنَّما ينتفِعُ بها من تَلَقَّاها بالقَبول، واعْتَقَدَ الشِّفَاءَ بها.

وبكثرةِ الاستغفَارِ تَزُولُ الأَمراضُ وَيَقِلُّ أَثَرُهَا، قال تَعالَى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هُود: ٥٢].

❖ الإيمانُ بالسِّحرِ والعين:

إخلاصُ العملِ للَّهِ هو مَدَارُ القَبُول، وبالإِخلاص يُبارَكُ في القليلِ من العمل، ويَحْسُنُ الفِعْل. والطَّبيبُ المسلمُ يتطلَّعُ إلى الجديدِ من علومِ المعرفةِ لخدمةِ المسلمين، مع عدمِ الإخلالِ بما جاءَتْ به الشَّريعة، فيؤْمنُ بالسِّحرِ وتأثيراتِه على البدن، ولا يُنكِرُ الجانَّ وتلبُّسَه بالإنس، وما قد يُحْدِثُه من تصرُّفاتٍ على العقل، ويُصَدِّق بالعين، وأنَّها حقٌّ ولو كانَ شيءٌ سَابِقَ القَدَرِ لَسَبَقَتْهُ العَيْن، ويُؤْمنُ بالغَيبيَّات ويُصَدِّق بالمحسُوسَات.

❖ واجباتُ الطَّبيب:

الطَّبيبُ مُؤْتَمَنٌ على الأَسرارِ والعَوْرَات، حقُّه أن يَستُرَ على المرضى ولا يُبْدِيَ أمراضَهم، ولا يَبُثَّ شكواهم،

يُعامِلُهم بالرَّأفةِ والرَّحمة . المرْضَى أَفْشُوا لكَ أسرَارَهم، وبَثُّوا إليكَ – بعدَ الله – شكواهم، أَسلَمُوا لك أجسادَهم وعُقُولَهم، بلْ وأرواحَهم، فَرَاقِبِ اللَّهَ في قولِك وفعلِك، فلفظُك عند المرضى مسموع، ورأيُك في قطعِ أجسادِهم مُسَلَّم. والمريضُ ابتُلِي بِدَاءِ الْمَرَضِ لَا لنقصٍ فيه؛ بل لحكمةٍ أرادَها الله له رفعةً وتطهيراً، فلا تَزْدَريهِ لمرَضِه، ولا تَحْتَقِرْهُ لبَلْوَاه. والطَّبيبُ إنْ تكبَّر بعلْمِه وَضَعَهُ الله به، ومِنْ كمالِ العقلِ أن يقولَ عمَّا جَهِلَه: لا أَعْلمُه، فَمَا يَنْغَلِقُ علَى أَحدٍ قد يُفتَحُ لآخر، وهنَاك أدواءٌ طُوِيَ عِلْمُهَا عن البَشَر، فَلا تخجلْ من إظْهَارِ عَدَمِ العِلْم والمعرفةِ بعِلَّة المريض.

❖ الحِلْمُ على الْمرِيض:

والحِلْمُ والصَّبرُ من أهمِّ صِفَات الْمُحتَسِبين، فلا تَتَضجَّر من شكوى المريضِ وبَثِّ أحزَانِه أو سُوءِ خُلُقِه، فإنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً. والتَّلَطُّفُ بالمريضِ والرِّفقُ به حُسنٌ في الرَّأيِ وكَمَالٌ في الدِّرَايَة، واللَّهُ تعالى يُحِبُّ الفَأْل، فَبَشِّرِ المريضَ بِقُرْبِ انفِرَاجِ الكُرَب، فالنَّفْسُ إنِ اسْتَشْعَرَتْ أنَّ لدائِها دواء تعلَّق قلبُها بروحِ الرَّجاء.

❖ وفي أنفسِكم أفلا تبصِرُون؟

وآيةُ اللَّهِ في إبداعِ خَلْقِ الإنسَان عندَ الأطبَّاء قائمة ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذّاريَات: ٢١]، في عَظَمَةِ خلْقِ اللَّهِ في الإنسانِ ما بَهَرَ العُقَلَاء ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التِّين: ٤]، ذلك الخلقُ يَدْعُو غيرَ المسلِم إلى الإسلامِ ويَزِيدُ في إيمانِ المسلم، فَلْيَتَّخِذِ الطَّبيبُ من عَمَلِهِ عبادةً بالتَّفَكُّرِ في آلَاءِ الله لِلْقُرْبِ من الله، ولْيَكُنْ داعيةً لهذا الدِّينِ بما بَدَا لَهُ من عظيمِ الصُّنْعِ والاتْقَان.

والمعصيةُ تُغْلِقُ أبوابَ المعرفة، وقدْ حَرَّمَ الإسلامُ الخَلْوةَ بالمرأة لكشفِ الدَّاء أو غيرِه، والواجبُ على

المسلِمِ أن يعملَ بالشَّرعِ في كلِّ مكان، واختلاطُ العَامِلين في دُورِ طَلَبِ الشِّفاءِ يُضْعِفُ الكَسْبَ العِلْمي، ويَنْزَعُ بَرَكَة التَّداوي، وهو منْ أسبابِ بُعدِ المرءِ عن اللَّهِ وحلولِ الأسقام، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**» متفق عليه.

وفي الطَّاعةِ فَتْحٌ للمعارِف، وسموٌّ بالأَرْوَاح، وإتقَانٌ للأعمال، والمرضَى والْمُدَاوُونَ واجِبُهُم أن يكونوا من أقربِ النَّاس إلى الله لحلولِ الْكُرَبِ بهم، والمْحْنَةُ إذا اشتدَّتْ لا فَارِجَ لها إلا الله، والبعدُ عن اللَّهِ في الرَّخاءِ وعصيانِه في الشِّدَّةِ من موجباتِ الشَّقاء.

❖ الرِّضَا بالمكتوب:

من الثَّباتِ والكَمَالِ الصَّبرُ والرِّضا بالمقدور، فَارْضَ - أيُّها المريضُ - بما قَسَمَ اللَّهُ لك تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاس، واصبرْ صبرَ الكريمِ طوعاً لا صبرَ المتجزِّع دفعاً، فعاقبةُ الصَّبرِ إلى خير، وعلى قَدْرِ الإيمانِ يكونُ الصَّبرُ والتَّحمُّل، والصَّبرُ خيرٌ لأهلِه، ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النّحل: ١٢٦]، ومن صبرَ ورضيَ فاللَّهُ مدَّخرٌ له ما هو أعظمُ من فواتِ تلكَ المصيبة، وتذكَّرْ أنَّه ما ابتلَاكَ إلا ليطهِّركَ ويرفعَ درجتَك، وأنَّ ما وَهَبَكَ اللَّهُ من النِّعَمِ أضعافَ ما أَخَذَ منك.

أصيب عروة بن الزُّبير بفقد ولده، فقال: «لَئِنِ ابْتَلَيْتَ فَقَدْ عَافَيْتَ، وَلَئِنْ أَخَذْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ». والجزَعُ لا يَرُدُّ المرض، بل يضاعفُه، وإذا أُصبْتَ بِدَاءٍ فَاحْمَدِ اللَّهَ أنَّك لم تُصَبْ بأكثرَ من داء، وأحسنِ المناجاةَ في الخلوة، ولا تَنْسَ ذكرَ اللَّهِ شكراً على العطاء، وصبراً على البلاء، فما أَقْبَحَ أن يكونَ المرءُ أوَّاهاً في البلاء، ثم يكونَ عاصياً في الرَّخاء.

❖ لا تَنْسَ حَمْدَ الله إذا شَفَاكَ:

وحين تَلُوحُ لك بَوَادِرُ شفاءٍ وتَسعَدُ ببدءِ زوالِ البلاءِ فاقْدِرْ لنعمةِ العافيةِ قَدْرَهَا، واعرِفْ فضلَ وكرمَ مُنْعِمِها، وأَدِم التَّعلُّقَ بحبلِ الله، وتعرَّفْ عليه في الرَّخاء يعرفْك في الشِّدَّة، وإيَّاكَ والاغترارَ بالعافيةِ فالأيَّامُ دُوَل، وأَقْبِلْ على الله بالتَّوبةِ الصَّادقة، وخذِ العِبرةَ من الأيَّامِ والأحدَاث، واحذرْ مزالقَ الشَّيطانِ بإساءةِ الظَّنِّ بالله أو التَّسخُّطِ والتَّجزُّعِ على أقدارِ الله، فهو سبحانه الرَّحيمُ بخلقِه، الرَّؤُوفُ بعباده، الدَّافعُ للبلوى، السَّامعُ لكلِّ شكوى، قال سبحانه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

❖ دواءٌ جرَّبَتْه جميعُ الأمم:

خيرُ ما يُداوِي به المريضُ أدواءَه تفقُّدُ قلبِه وصلاحِه وتقويةُ روحِه وقواه، بالاعتمادِ على الله والتَّوكُّلِ عليه والالتجاءِ إليه، والانطراحِ والانكسارِ بين يديه، والتَّذلُّلِ له، والصَّدقةِ والدُّعاءِ، والتَّوبةِ والاستغفار، والإحسانِ إلى الخلق، وإغاثةِ الملهوفِ والتَّفريجِ عن المكروب، قال ابن القيِّم رحمه الله: «هذه الأدويةُ قد جرَّبَتها الأممُ على اختلافِ أديانِها ومِلَلِهَا، فوجدُوا لها من التَّأثيرِ في الشِّفاء ما لا يَصِلُ إليه علمُ الأطباء ـ ... قال ـ: وقد جرَّبْنَا نحنُ وغيرُنا من هذَا أموراً كثيرة، ورأينَاهَا تَفْعَلُ ما لا تَفْعَلُ الأدويةُ الحِسِّيَّة».

نسألُ الله أن يشفيَ كلَّ مريض، وأن يعافيَ كلَّ مبتلى.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.